أزمة علم الإقتصاد وفخ النظرة المنهجية ... من أدم سميث وحتى وقتنا الحاضر

ما زالت صرخة واسيلى ليونيتف صداها فى أذنى حتى الأن ! عندما صرخ صرخته فى كتابه " لماذا لم يصبح الإقتصاد علما بعد ؟ " وذلك منذ أكثر من خمسين عاما ، وما زال السؤال يطرح نفسه وبقوة يوما بعد يوم وحتى وقتنا الحاضر ، ولم يشفع للإقتصاديين رغم وقوف (عالم) الإقتصاد جنبا إلى جنب علماء العلوم الطبيعية فى محفل جائزة نوبل منذ أواخر الستينات وإلى الأن ، لم يشفع لهم ذلك الإعتراف الدولى والمنتديات العلمية وتتويج علم الإقتصاد ملكا ، وجلوسه على عرش العلوم الإجتماعية .

- الفخ المنهجى

ولعل المشكلة المزمنة فى أزمة علم الإقتصاد ، تعود إلى بداية إعلان إستقلاله كعلم على يد المؤسس العظيم أدم سميث فى كتابه ثروة الأمم " ، واستمرت وتفاقمت أزمته كعلم من خلال نظرة رواد المدارس الإقتصادية على إختلاف مشاربهم وتأثرهم بعلماء العلوم الطبيعية كنيوتن وغيره من أصحاب المنهجية الحتمية الملازمة للسبب والنتيجة .

نظر علماء العلوم الطبيعية للكون من حولهم ، فى الأرض والسماء ،والليل والنهار ، والشمس والقمر والنجوم ، والبرق والرعد ، ..إلخ ، ودعم نظرتهم بيكونية المذهب التجريبى ، وأخذوا يبحثون فى المادة ويجربون ويصلون إلى قوانين جامدة ولها حتمية الحدوث من التزامنية بين السبب والنتيجة ، وعلى الجانب الأخر ، رأينا علماء أخذوا ينظرون إلى ما فعله علم الطبيعة وتقدم أبحاثهم فى مختلف المجالات الطبيعية ، فنظروا للمجتمع وللعالم الإجتماعى نظرة عالم الطبيعة للكون وعلم الطبيعة ، وكما للعلم الطبيعة قوانينه الجامدة كذلك – هكذا فكروا- للمجتمع بكل جوانبه الإجتماعية قوانينه التى تشبه فى عملها قوانين الكون وعالم الطبيعة ، وبالتالى يمكن – هكذا فكروا – الوصول إلى قوانين جامدة تتسم بالحتمية التى تغلفها التزامنية بين السبب والنتيجة ، وساروا فى هذا الإتجاه وقد عكفوا فى مكاتبهم يدرسون ويشرحون المجتمع آملين أن يصلوا بعلوم إجتماعية جامدة فى قوانينها جمود العلوم الطبيعية وقوانينها .

وبعد ردح من الزمن وجدوا أنفسهم وقد صنعوا نماذج مثالية بعيدة كل البعد عن الواقع ، لا صدى لمنطقها ومصدقيتها إلا فى قاعات الدرس ! ، وما أن تخرج للواقع كى تفسر وتتنبأ بما

يجب أن يحدث ، ترى الواقع شيء ، وما قالته نظرايتهم ونادت به شيء أخر ، فكانت الأزمة والمشكلة للعلوم الإجتماعية عامة ولعلم الإقتصادة بصفة فقط ؟ ربما كان من أهم أسباب الأزمة ما زكرناه آنفا كخطأ منهجى وقع فيه المؤسسون الأوائل لهذا العلم كفخ منهجى وقعوا فيه ، واستمر جيلا بعد جيل من أساتذة وطلاب لهذا العلم ، ولعل صرخة ليونيتف عبرت عن هذا الأمر بسؤاله الذى ما زال يتردد صداه وما من إجابة شافية حتى الأن .

كان على المؤسسين الأوائل أن يعووا تمام الوعى ، أن علماء الطبيعة يتعاملون مع مادة صماء لها إنفعال واحد حتى وإن أعدت التجربة مئات المرات ، فلها نفس الإنفعال ، أما هم – المؤسسون الأوائل للعلوم الإجتماعية عامة – يتعاملون مع مجتمع قوامه الإنسان بكل ما فيه من خير وشر ، صالح وطالح ، مشاعر ونزوات وأهواء ، لا إستقرار لسلوكه ، ولا وصول لنقطة توازن معه ، يمكن من خلالها الوصول للإستقرار وعدم الميل للتغيير والخروج من هذا الوضع المستقر ، فعالم الطبيعة عندما يقوم بإشعال النار فى ورقة أو خشبة أو فى سائل يستطيع أن يتنبأ بسلوك كل مادة من هذه المواد وعلى وجه الدقة ، أما عالم الطبيعة ذاته لا يستطيع أن يتنبأ بسلوك عدة أشخاص أمام لسعة نار، فما بال علماء العلوم الإجتماعية إزاء مجتمع بأسره ؟.

- الموقع الأزمة

وإذا نظرنا إلى تصنيف العلوم ما بين علوم طبيعية وعلوم إجتماعية ، ونظرنا لموقع علم الإقتصاد بين هذين التصنيفين ، وجدنا أنه فى موقع يعد من أحد الأسباب فى أزمته كعلم ! ، ويمكن أن نطلق عليه " الموقع الأزمة " فهو يأتى فى أدنى العلوم الطبيعية وفى قمة العلوم الإجتماعية ، فهو يعد كحلقة وصل أو نقطة إلتقاء بين العلوم الطبيعية والعلوم الإجتماعية ، ودائما حلقات الوصل أو نقط الإلتقاء بين شيئين مختلفين ، يصعب التعامل معها وتصنيفها ، وعلم الإقتصاد فى موقعه هذا به جانب كمى وجانب أخر كيفى ، والجانب الكمى يتوقف فى سواده الأعظم على الإنسان ، والجانب الكيفى يتوقف كلية على الإنسان ، ومن هنا لا تستطيع أن تصنفه كاملا مع العلوم الطبيعة ، أو تصنفه كاملا مع العلوم الإجتماعية ، ولعل هذه الطبيعة المزدوجة فيه ، أحد أسباب اللبس لدى أساتذة علم الإقتصاد ، وأنهم ركزوا على الجانب الكمى فيه ، وأهملوا نصفه الأخر الذى كانوا يجب أن يفطنوا إليه ، ويتعاملوا مع علم الإقتصاد منذ البداية على أنه علم إجتماعى محض ، ولا يدخلون مع علماء الكون والطبيعة فى سباق للوصول لنظرياتهم الحتمية وما يغلفها من تزامنية بين الأسباب والنتائج .

- فخ التلقى

ولم يقف الأمر عند الموقع الأزمة ولكن بالإضافة إلى فخ المنهجية ، فقد ترتب عليهما أن طـريقة تدريس علم الإقتصاد داخـل قـاعات الـدرس شابها خطأ يمـكن أن نطـلق عـليه " فخ التلقى " وهذا ما يقع فيه طالب الإقتصاد من أول درس يتلقاه فى علم الإقتصاد ، فعندما يقوم الأستاذ بشرح مسألة فى الإقتصاد ، يشرحها فى صورة أحداث تترتب بعضها على بعض فى صورة أسباب ونتائج ، ولكن أثناء قيامه بذلك يتكلم بصورة فيها من الجزم والحتمية والتزامنية بين السبب والنتيجة ! ولم يشر من قريب أو بعيد أن هناك فترة إبطاء ما بين السبب والنتيجة ، قد تمتد لشهور أو لسنوات حتى نحصل على النتيجة التى وصلنا إليها من النظرية فى قاعة الدرس ، وأن ما تم شرحه هى فروض لم يثبتها الواقع ، وكم من النظريات فى علم الإقتصاد ما زالت تدرس على أنها قوانين ، برغم أن الواقع قد لفظها بتمامها ولم يؤيدها فى مشاهدة واحدة نادت بها هذه النظرية ، ومن هنا تأتى صدمة طلاب الإقتصاد بعد تخرجهم وما ظلوا يتعلمونه شىء والواقع شىء أخر تماما .

- فخ الحتمية

ربما أشرنا لهذا الأمر بصورة عامة ونحن بصدد الفخ المنهجى ، ولكن ما نريد قوله فى هذه النقطة هو إجابة لسؤال : هل يمكن أن نصل لقوانين فى علم الإقتصاد لها من الحتمية والتزامنية بين السبب والنتيجة ؟ والإجابة البديهية لا يمكن أن نصل لهذا الأمر من صياغة قوانين لها من الحتمية والتزامنية بين السبب والنتيجة فى علم الإقتصاد ، وذلك إذا كانت العلوم الطبيعية قد وصلت لمرحلة عدم التأكد فى بعض قوانينها وبالتالى تصدع فى مبدأ الحتمية التى طالما تفاخر به النيوتنيون ! وأفضت نظرية عدم اليقين فى الفيزياء إلى صعوبة التنبؤ بسلوك المادة ، ووضعت نظرية الإحتمالات فترات ، يمكن من خلالها أن نحصل على نتيجة ما ، وإن كان ذلك كذلك فى العلوم الطبيعية فما بالنا بالعلوم الإجتماعية عامة وفى علم الإقتصاد بصورة خاصة ، إننا لا نعمل فى ظل ظروف عدم التأكد فحسب داخل العلوم الإجتماعية بل نعمل فى ظل ظروف تكاد تكون " عمياء " صعب أن تحتويها نظرية وتتنبأ بما ستكون عليها الأمور .

ومن ناحية أخرى لا يمكن الوصول للقوانين الحتمية فى علم الإقتصاد لسبب أخر يتعلق بلقمة عيش البشر ، فمحاولة الوصول لقوانين حتمية فى علم الإقتصاد كمن يحاول أن يبسط يده للماء كى يبلغ فاه وهو واقف بعيدا عن منبع الماء ، ماذا إن وصل البشر لمعرفة يقينية

وحتمية لطريقة من طرق كسب المال ؟ هل يعملون أو يطمحون لعمل بعد ذلك ؟ طالما وجد القانون ، فالكل سيعمل عليه وأصبحت طرق الوصول للمال وفقا لهذا القانون سهلة ومريحة ، فمسألة الربح والخسارة والمخاطرة وصراع الإقبال والإحجام فى عالم الإقتصاد ، والبيئة العمياء ! والتى قلنا عليها تأدبا ومجاراة لعلماء الطبيعة عدم يقين ، كل هذه الأمور سنة من سنن عالم الإقتصاد ويجب أن نفكر فيها على أنها باقية ودائمة ولا يمكن السيطرة عليها بالوصول للحتمية واليقين بشأنها .

وأمام هذا الأمر ، فخ منهجى وموقع أزمة وفخ التلقى وفخ الحتمية، بعض من الأساب التى أدت إلى أن علم الإقتصاد أصبح فيه أزمة وإشكالية نالت من علميته ، وشكك البعض فيه بل تعدى الأمر إلى المنادة بإلغاء جائزة نوبل المخصصة لهذا العلم سنويا ، مما أدى إلى وجود العديد من أساتذة لهم باع طويل فى هذا العلم يقومون بعمل " مقاربات " لتطوير علم الإقتصاد ومحاولة ردم الفجوة العميقة ما بين النظرية والواقع .

حسين عبد العزيز عبده

ميت غراب – مركز السنبلاوين – محافظة الدقهلية

الأحد 29 رجب 1447 هجرية- 18 يناير 2026 ميلادية

حسين عبد العزيز عبده